من أدب القرن التاسع

كتاب « سحر العيون »

للأستاذ أحمد يوسف نجاتى

كنت منـذ حين قرأت حديثاً للأستاذ أحمد بك أمين يعرض فيه « كتاب سحر العيون » عرضاً شائقاً — والكتاب مطبوع قديماً بدون أن يذكر فى أوله اسم مؤلفه — ورأيت الأستاذ يقول فى هذا المقال القيّم : من الأسف أنى لم أعثر على اسم مؤلفه . ولكنه فى ثنايا الكتاب يقول : «أنشدنى صاحبنا الشيخ شمس الدين محمد ابن أبى بكر القادرى[1] المولود سنة ٨٢٤ . فمؤلف الكتاب إذاً — من أدباء القرن التاسع الهجرى — والظاهر أنه مصرى لأنه يروى لنا فى ثنايا الكتاب أحداثاً مصرية وأمثالاً عامية مصرية »

(١) شمس الدين محمد بن أبى بكر بن عمر بن عمران بن نجيب بن عامر أبو الفضل الأنصارى الأوسى السعدى المصرى القادرى الشاعر المشهور . جزم فى نظمه أنه ولد فى سنة ٨٢٠ فى جهة دمياط ، كان أديباً شاعراً مجيداً . أنشد له البدرى فى ص ٢٨٠ ، ٣٠٢ من كتابه ، وتوفى فى أوائل القرن العاشر . وسنعرض لترجمته ونقد شعره وعرض كثير منه

الجهول ! ! هل ترى العالِم المنقِّبَ الفاضل حين يدخل خرائب البابليين يَغْمُرُ صدره بالإيمان ، وترتفع روحه إلى أجواء من السعادة العلوية ، وتتملكه الروعة والجلال كهذا الدليل الجاهل الأمى الجواب عندى « لا » ! !

لأنى من المؤمنين بأن للجهل نفعاً ، وأن شأنه فى هذا شأن كل ما أبدعته الكفُّ الصَّناعُ الخالقة الجليلة فى هذا الكون الجميل ... وهنا بانت لنا عن بعد دائرة جوازات السفر على الحدود الفلسطينية فأبدلتنا بأفكارنا غيرها ، وتبددت هذه الأخيلة وكان ما كان ...

* * *

فإلى الأستاذ المازنى الجليل نسوق سؤالاً عن نفع الجهل ؛ فقد كان حدثنا بحديث من ذلك قبل سنين . فإن رأى — أطال الله بقاءه وجعلنا من كل سوء فداءه — ألاّ يبخل بهذه الآراء على قراء (الرسالة) فعل وله منا ومنهم ألف شكر !

فتحى شهاب الصعيدى

فأسفت لأسف الأستاذ ، وأردت أن أكتب ترجمة طويلة لهذا المؤلف تكشف الحجاب عنه ، وأن أعرض ما أعرفه من مصنفاته عرضاً دقيقاً وأحلله تحليلاً أدبياً مسهباً . ولكن عَدَت دون ذلك عوادٍ صارفة لا قِبَل لى بها ، وحالت دونه عوائق شاغلة لم يكن أمر نفسى معها بيدى . وطال الأمد على ذلك حتى أُنسيت ما كنت قد عزمت عليه ؛ وشغلتنى أعمالى الكثيرة بغيره ، إلى أن سألنى اليوم أحد الطلبة الأدباء عن مؤلف هذا الكتاب ؛ فذكرنى بما كنت قد نسيته ؛ ورأيت أن أنتهز هذه الفرصة السانحة فأسعف طلبته بهذه الكلمة الموجزة التى أحررها على عجل . وفى العزم إن شاء الله أن أبسط القول فى ترجمة هذا الأديب وترجمة شيوخه وأصحابه ومعاصريه الذين تربطهم به صلة وثيقة كان لها أثر بيّن فى أدبه ؛ وأن أطيل الكلام فى الأدب المصرى والشامى فى عصر المماليك عامة وفى القرن التاسع خاصة . وأرجو أن تفسح لى مجلة « الرسالة » الغراء صدرها فمهدى بها مجلة الأدب الرفيع وحلبة ميدانه التى تجول فيه أقلام فرسانه من الكرام الكاتبين

١ — لقد دل مؤلف « سحر العيون » على نفسه فى نحو عشرين صفحة من كتابه ، ونادى باسمه (البدرىّ) فيه كثيراً حتى بحّ صوته . وكأنى به فى ص ١٨٨ قال : « من عرفنى فقد اكتفى ، ومن لم يعرفنى فأنا جامعه البدرى عفى عنه ، مولده فى عشية الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول من شهور سنة سبع وأربعين وثمانمائة » وسنعرض بعد لسائر الصفحات التى صرح فيها باسمه ، وتناول شعره فيها وفى غيرها بالنقد والتحليل

٢ — للبدرى مؤلف « سحر العيون » كتاب آخر اسمه : (نزهة الأنام فى محاسن الشام) طبع بمصر بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤١ هـ صدر عنوانه فى أول صفحة منه بما يأتى :

« نزهة الأنام فى محاسن الشام ، تأليف أبى البقاء عبد الله ابن محمد البدرى المصرى الدمشقى من علماء القرن التاسع (ولد سنة ٨٤٧) صاحب الديوان المشهور ، وتاريخ « تبصرة أولى الأبصار » و « سحر العيون » اهـ . وقد دل المؤلف أيضاً على نفسه فى هذا الكتاب فى كثير من صفحاته ، وموعدنا بالكلام فى هذا الكتاب وسواه قريب إن شاء الله

٣ — وفي فهرس الكتب العربية لدار الكتب الملكية بالجزء الخامس المشتمل على فهرس التاريخ في ص ٣٨٧ ما نصه :

« نزهة الأنام في محاسن الشام ، تأليف أبي البقاء عبد الله ابن محمد البدري المصري الدمشقي من علماء القرن التاسع ، ولد سنة ٨٤٧ (وكتب سنة ٧٤٧ غلطاً) ، وهو صاحب الديوان المشهور والتاريخ المسمي : « تبصرة أولي الأبصار في انقراض العمر بين الليل والنهار » ، « سحر العيون » . الخ

وإني أنصح لمن يعني بالأدب وتاريخه أن يطلع على فهارس دار الكتب ، فإنه يعثر فيها على فوائد جمة ويهتدي إلى مراجع قيمة في اللغة العربية وآدابها وتاريخها . وفي كشف الظنون (نزهة الأنام في فضائل محاسن الشام) لأبي البقاء عبد الله ابن محمد البدري المصري الدمشقي الشافعي

٤ — وأبين مما تقدم ترجمة علم الدين السخاوي في كتابه (الضوء اللامع) لمؤلف « سحر العيون » . ونحن ننقل هذه الترجمة بنصها ، ونشفعها بشرحها ونقدها . قال : « أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله تقي الدين بن الجمال الدمشقي القاهري الشاعر الوفائي ، ويعرف بابن البدري ، ويكني أيضاً أبا البقاء ، ولد في شهر ربيع الأول سنة ٨٤٧ بدمشق ونشأ بها ، وتكرر قدومه مع أبيه للقاهرة ثم قطنها مدة ، واشتغل بالبلدين قليلاً . وكتب عن خلق من الشيوخ فمن فوقهم . وتعانى الشعر ومدح وهجا وطارح . وتردد إليّ فأخذ عني ومدحني فيما كتبته في موضع آخر ، وفيه :

جد لي سريعاً بالحديث إجازة يا كاملاً دُمْ وافر الإعطاء

وانتمى لبني الشحنة وتكسب بالشهادة وبالنسخ . فلما ولي الأمشاطي عمل فيه أبياتاً فلم يقابله عليها ، إلى أن تعرض لعبد الرزاق الملقب بجين أمه نزيل القاضي في البرقوقية ونسبه لأمر فظيع الله أعلم بصحته ، فبادر لتطلبه فلم يقدر عليه ، فصرح بمنعه من تحمل الشهادة فلم يلبث إلا يسيراً . وماتت له زوجة فورث منها قدراً طائلاً بعد فقره فلمّ أطرافه وسافر لمكة فجاور ثم قطن الشام ، ثم جاور بالمدينة سنة ٨٩٢ وكتب فيهما من تصانيف الشريف السمهودي وغيره ، ثم جاور التي تليها سنة ٨٩٢ بمكة ؛ وكان يجتمع عليّ بها ، وكتب من تصانيفي مجموعاً ، ولازمني في التحمّل رواية ودراية . وأوقفني على مجموع سماه « غرر[1] الصباح في وصف الوجوه الصباح » وقرظه له الشعراء فأبلغوا ، وكان من أعيانهم البرهان الباعوني وأخواه ، والشهاب الحجازي ، والمنصوري ، والقادري ، وابن قرقاس . وقال إنه ألفه بدمشق سنة ٨٦٥ ، والتمس مني تقريظه فأجبته وكتبت له إجازة حسنة ، وامتدح قضاة مكة وغيرهم ، وليس نظمه بالطائل ، ولا فهمه بالكامل . وكتبت عنه من نظمه :

إذا ما كان مجموعي لديكم من الدنيا بهذا قد قنعت
وما قصدي سوى هذا وحسبي بأني في يديك وما جمعت

وكان يتكسب بالتجارة ، وربما جلس بحانوت بمكة في الموسم . تعلل بمكة مدة وسافر منها وهو كذلك في أوائل المحرم سنة ٨٩٤ في البحر فوصل إلى الطور ثم غزة فأدركه أجله هناك في جمادى منها . وبلغنا ذلك في شوال — عفا الله عنه — وترك ولدين أو أكثر وتركة ، وأظن والده في الأحياء . عفا الله عنه وإيانا » اهـ

إنتهت ترجمة السخاوي . وهو معروف بأنه قد يتحامل على بعض معاصريه ، ويقذفهم بعبارات تهكم لاذعة وقوارص من الكلم تنطوي على سخرية مريرة ، بداعي المنافسة والمعاصرة والازدحام على منهل عذب واحد . وقد قال فيه معاصره (ابن إياس) في كتابه « بدائع الزهور » : « إنه ألف تاريخاً فيه كثير من المساوئ في حق الناس » . وأنشأ معاصره (جلال الدين السيوطي) مقامة من ضمن مقاماته سماها « الكاوي في رد تاريخ السخاوي) شنع عليه فيها ... يقول فيها : « ما ترون في رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونسب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكر المساوئ وثلب الأعراض ، وفوّق فيه سهاما على قدر أغراضه والأعراض هي الأغراض . وجعل لحم المسلمين جملة طعامه وإدامه ، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه ... » والمقامة مخطوطة محفوظة بدار الكتب الملكية تحت رقم ١٥١٠ . فينبغي للمنصف أن يقف أمام بعض تراجم السخاوي موقفاً محايداً مروياً

ونحن بعد هذا نشرح ما يحتاج إلى الشرح والتبيان من ترجمة علم الدين السخاوي لأبي بكر البدري ، ونشفع ذلك بنقده ونصل القول إلى ما وعدنا به من ترجمة حياة هذا الأديب ترجمة ضافية وترجمة أدباء عصره وأقرانه وشيوخه وأصحابه ، ونكشف النقاب عن الأدب المصري في القرن التاسع بل في عصر المماليك عامة بإذن الله

(١) قال في كشف الظنون « غرة الصباح في وصف الوجوه الصباح » — والاسم محرف هنا — للشيخ تقي الدين أبي بكر البدري الدمشقي ثم المصري . أوله : (أما بعد حمد الله الذي الخ) رتبه على سبعة عشر باباً) اهـ

١ — أما بنو الشحنة الذين انتمى إليهم البدرى فهم من أسرة شامية من مدينة حلب كريمة الأصل والحسب ، عريقة فى العلم والأدب . وقد تقلدوا كثيراً من الوظائف العلمية والدينية بالشام ومصر من قضاء وإفتاء وخطابة وتدريس . وكان لبعضهم أثر فى الحركات السياسية فى ذلك العصر ؛ وجدهم الأعلى «محمود» من أصل تركى وهو الملقب بالشحنة لأنه كان شحنة مدينة حلب (وشحنة البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان) ، فهى وظيفة كأنها وظيفة (الحكندار) الآن .

ومن أقدم من عرفت من بنى الشحنة :

١ — كمال الدين محمد بن محمد بن محمود (الشحنة) بن غازى ابن أيوب ، كان من فضلاء زمانه متقناً لعلوم الدين واللسان ، واشتغل بالتدريس والقضاء ونشر العلم وإفادته . وتوفى بمدينة حلب فى شهر ربيع الأول سنة ٧٧٦ .

٢ — وابنه أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمود ولد سنة ٧٤٩ بحلب ونشأ بها فى كنف أبيه وارتحل إلى دمشق والقاهرة للأخذ عن علمائها . وارتحل مرة أخرى إلى مصر سنة ٧٧٧ بعد وفاة والده فظهرت بها فضائله فولاه سلطانها قضاء بلده حلب سنة ٧٧٨ فلبث بها حيناً يتقلب بين الولاية والعزل حتى فصله السلطان برقوق سنة ٧٩٣ فعاد إلى القاهرة وأقام بها نحو ثلاث سنين ، ثم توجه إلى بلده وشغل نفسه بالتأليف وإفادة العلم ، ثم ولى قضاءها سنة ٨٠٩ ، وبعد حوادث عاد إلى القاهرة معزولاً عن عمله فولى بها عدة وظائف فى التدريس ، ثم عاد إلى وطنه حلب فتوفى بها فى شهر ربيع الآخر سنة ٨١٥ وكان نابغة فى علوم اللغة والدين والأدب والتاريخ ، وله مؤلفات مفيدة ذكر منها فى كشف الظنون كتاب (أوضح الدلائل والأبحاث فيما يحل به المطلقة بالثلاث) و (روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر) انتهى فيه إلى سنة ٨٠٦ ؛ وبدار الكتب المصرية نسخة منه مخطوطة فى مجلد فرغ كاتبها منها آخر شوال سنة ١٢٩٧ هـ نقلها عن النسخة الخطية بخط أبى الحسن على بن حسن بن على ابن احمد السروى الأزهرى ، انتهى من كتابتها فى شهر شعبان سنة ٨٧٣ وهى منقولة عن نسخة بخط القاضى محب الدين أبى الفضل محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن الشحنة ولد المؤلف ، أتمها كتابة فى شهر رمضان من سنة ٨٢٥

وكان عاقلاً ذكياً دمث الأخلاق ، حلو النادرة ، لطيف المحاضرة ، قوى البديهة . قال المقريزى : ولقد قام مقاماً عجز أقرانه عنه ، وتعجب أهل زمانه منه ، وذلك أن الطاغية تيمورلنك لما استولى على مدينة حلب ٨٠٣ وتسلم قلعتها بالأمان بعد أن استحر القتل والأسر فى أهلها ، صعد إليها وجلس فى إيوانها وطلب القضاة والعلماء للاقائه فامتثلوا أمره . وكان من عادته أنه إذا فتح مدينة يعقد مجلساً لمناظرة علمائه وإعنائهم ، وكأنه يريد أن يريهم أنه على حق فى عمله ، ويصبغ فظائعه الروعة صبغة شرعية . واتفق هؤلاء العلماء فيما بينهم أن يتولى القاضى ابن الشحنة الإجابة عن الأسئلة التى يوجهها تيمور إليهم ثقة بحذقه وحسن تصرفه . وكان للطاغية إمام من جلة المعتزلة هو القاضى عبد الجبار بن عبدالله الخوارزمى الحنفى ولد سنة ٧٧٠ وتوفى سنة ٨٠٥ وكان عالماً قديراً بارعاً متقناً لعلوم الدين واللغة والأدب ، يجيد اللغات العربية والفارسية والتركية ، وكان ذا ثروة طائلة وجاه عظيم ومنزلة رفيعة لدى تيمورلنك حتى انتهت إليه الرياسة فى أصحابه . وكان يصحبه معه فى غزواته لمناقشة العلماء ومناظرتهم وليكون حلقة اتصال بالترجمة بينه وبينهم . وقد كان القاضى عبد الجبار رحمة للمسلمين ، طالما أنقذهم من غضب الطاغية وسخطه ، وأطفأ عنهم نار ثورته وحدته . وكان ربما تبرم من صحبة تيمور لنك فى نفسه ولكن لا يسعه مخالفته مع ما يرجو فى ذلك من ثواب نفعه للناس لدى هذا الطاغية وكف شره عنهم .

عقد تيمور المجلس وأخذ يوجه إلى العلماء الأسئلة بوساطة إمامه ، وابن الشحنة يجيب عنها بلباقة ، فكان من ضمن هذه الأسئلة أن قال لهم : أى الطائفتين من القتلى هو الشهيد ، أمن قتل منكم أم من قتل منا ؟ وقد كان هذا السؤال محرجاً لولا مهارة القاضى ابن الشحنة ؛ فقد أجاب قائلاً : لقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك فأجاب : فإنه وفد إليه أعرابى وسأله : يا رسول الله ، إن الرجل ليقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل ليرى مكانه ، فأينا فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو الشهيد فى سبيل الله ... فراق تيمورلنك هذا الجواب وأحسن إلى ابن الشحنة ، وأعجب بدهائه وحسن تخلصه ولطف احتياله وسرعة بديهته ، وجعل يؤانس العلماء ويلاطفهم ، ووعدهم العفو عنهم حتى أفرخ روعهم ؛ وأقبلوا يجيبون على أسئلة تيمور بما عندهم ، وكان آخر ما سألهم عنه أن قال : ما تقولون فى على ومعاوية ويزيد ؟ وما الحكم فى قتال

على ومعاوية ؟ وهل يجوز لعن معاوية وابنه ؟ فأجاب القاضي علم الدين القفصي : محمد بن ناصر الدين محمد بن محمد الدمشقي[1] قائلاً : إن عليًا اجتهد وأصاب فله أجران ، ومعاوية اجتهد وأخطأ فله أجر واحد . فغاظ ذلك الجواب تيمورلنك وأهان العلماء وسبّ أهل حلب ، ورماهم بأنهم يزيديون يبغضون أهل البيت وشيعتهم ، فتدارك ابن الشحنة الأمر بلطفه وقال : إن القاضي علم الدين أجاب بما وجده في كتاب لم يمعن في معناه والغرض منه . فأعجب ذلك الطاغية ، وسكت عنه الغضب . وأجاب القاضي شرف الدين موسى ابن محمد بن محمد قاضي حلب المتوفى سنة ٨٠٣ بأن معاوية لا يجوز لعنه لأنه صحابي ؛ فثار الطاغية وسب العلماء ، ولولا أن القاضي شفع ذلك بقوله : إنه رأى حاشية على بعض الكتب بأنه يجوز لعن يزيد ، ولولا أن الطاغية كان قد وعد بالعفو ، ولولا حسن وساطة القاضي ابن الشحنة ، للاقى العلماء يومئذ من تيمور شراً مستطيراً .

هذا ، ولابن الشحنة نثر ونظم ليس عالي الطبقة ، بل هو كشعر الكثير من أبناء عصره

ومن ذلك قوله :

كنت بخفض العيش في رفعة ... معتدل القامة ظلي ظليل
فاحدودب الظهر وها أضلعي ... تمدّ والأعين مني تسيل

ومنه :

ساقي المدام دع المدام فكل ما ... في الكأس من وصف المدامة فيكا
فضل المدام ولونها ومذاقها ... في مقلتيك ووجنتيك وفيكا[2]

ومنه :

أسير بالجرعا أسيراً ومن ... همّي لا أعرف كيف الطريق
في منحنى الأضلع وادي الغضا ... وفوق سفح الخد وادي العقيق

هذا وقد كان أبو الوليد بن الشحنة محدّثا . وممن مدحه الجمال عبد الله بن محمد بن زريق المعري ثم الحلبي . ولد سنة ٧٧٥ بالمعرة ونشأ بها ثم قدم مدينة حلب فاشتغل بها وتوفي سنة ٨٢٧ وكان فاضلاً أديباً ناظماً ناثراً محسناً ... قال فيه قصيدة مطلعها :

لم أدر أن ظُبي الألحاظ والهدب ... أمضى من الهندوانيات والقضب

٣ — وأبو الوليد هذا كان يكنى بابن له اسمه الوليد كان آية في الذكاء أديباً ناظماً ناثراً . توفي شاباً في حياة أبيه حوالي سنة ٨٠٤ هـ

٤ — وأخوه فتح الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمود ولد سنة ٧٥٣ بحلب ونشأ بها . وأخذ عن أبيه وأخيه وغيرهما . وقدم القاهرة غير مرة . وناب عن أخيه في قضاء الحنفية بحلب وكان ذا حشمة ومروءة وعناية بالأدب . وله نظم قليل منه :

يا سادتي رقّوا لرقّة نازح ... لفظته أيدي البعد عن أوطانه
والله ما جلتم بخاطر عبدكم ... إلا وفاض الدمع من أجفانه

(يتبع)

أحمد يوسف نجاتي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

(١) قال عنه في شذرات الذهب : إنه عني بطلب العلم في كبره ودار في الدروس واشتغل كثيراً ، لكن مع قصور فهم وقلة عقل وعناية بالعلم . ولي قضاء دمشق إحدى عشرة مرة في مدة ٢٥ سنة أولها سنة ٧٧٩ وولي قضاء حلب وحماة مراراً ، وكان عنيفاً ، وأصيب في الوقعة الكبرى بماله ، وأسرت له ابنة ، وتوفي سنة ٨٠٥ .

(٢) أخذ هذا المعنى وقصر فيه من قول ابن حيوس أبي الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس أحد الشعراء الثلاثين المجيدين ، ولد بدمشق سنة ٣٩٤ وتوفي سنة ٤٧٣ :

وصفهف ينفي النديم بوجهه ... عن كأسه للأي وعن إبريقه
فضل للمدام ولونها ومذاقها ... في مقلتيه ووجنتيه وريقه

وكلا الشاعرين عني بالجناس واللف والنشر ، ولكن للمتقدم فضل السبق وإجادة السبك . ويحتا ابن الشحنة الأخيران مشحونان بمراعاة النظير والتوجيه بأسماء بعض الأماكن .

اعلان

وزارة الزراعة

تقبل الظاهات بادارة المخازن والمشتريات بالدقي لغاية ظهر يوم ٢٩ ابريل سنة ١٩٤٢ عن توريد (١) زجاجات فارغة (٢) أقفاص جريد (٣) سبلة وزبل حمام وسماد بلدي لأقسام الوزارة . ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من الادارة المذكورة يوميا ماعدا العطلات الرسمية مقابل دفع مبلغ ٣٠ مليما أجرة البريد وذلك عن كل مناقصة ٩٢٠٤